



Cycle de conférence :
Stratégies méditerranéennes,

Conférence du 17 décembre 2006

Bibliotheca Alexandrina, Alexandrie

<http://ramses2.mmssh.univ-aix.fr>

البحر الأبيض المتوسط
باعتباره منطقة استراتيجية

محاضرة

السيد يسين

أستاذ علم الاجتماع السياسي

مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية

مستشار بمكتبة الإسكندرية

17 ديسمبر 2006

مقدمة:

لم تصبنى الدهشة حين وصلتى دعوة مكتبة الإسكندرية لى أشارك بمحاضرة عن البحر الأبيض المتوسط باعتباره منطقة استراتيجية.

فقد عودتنا المكتبة باعتبارها مركزاً عالمياً للإشعاع الحضارى أن تجمع فى برامجها بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية. وربما يكشف عن مبدأ وحدة المعرفة التى تصدر عنه المكتبة أنها تحنقى بالتراث العلمى لأينشتين فى الوقت الذى تحنقى فيه أيضاً بالتراث الأدبى لشكسبير. بل إنها تجمع فى أنشطتها بين العلم والفكر والفن والموسيقى.

واستطاعت المكتبة منذ عامين من خلال المؤتمر الأول للإصلاح العربى أن تثير قضية الإصلاح من جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على مستوى العالم العربى، من خلال ما طرحته نخبة ممثلة من المثقفين والسياسيين العرب وممثلى مؤسسات المجتمع المدنى.

وأصدر هذا المؤتمر التاريخى "وثيقة الإسكندرية" التى أصبحت منذ صدورها وثيقة عالمية تعبر عن مطالب المثقفين العرب. وتأسس منتدى الإصلاح العربى الذى يرأسه الدكتور إسماعيل سراج الدين والذى يواصل المناقشات المتعمقة لكل القضايا التى طرحها المؤتمر الأول للإصلاح العربى، كما تأسس مرصد الإصلاح العربى الذى يقيم التطور الديموقراطى فى العالم العربى سنوياً. وقد أصدر المرصد كتاباً منهجياً يتضمن مؤشرات القياس، كما قام بإصدار تقرير عن تقييم التطور الديموقراطى فى العالم العربى لعام 2005 وهو تحت الطبع الآن، كما أنه يواصل البحث لقياس الإصلاح العربى لعام 2006.

السادة والسيدات:

معالجة موضوع البحر الأبيض المتوسط باعتباره منطقة استراتيجية ليست هينة ولا ميسورة. وذلك لأن المتوسط منذ قديم كان منطقة تفاعلات بالغة الكثافة ودارت فى جنباته حروب عنيفة بين إمبراطوريات متعددة.

وهو اليوم يعد ساحة غنية بالتفاعلات السياسية والاقتصادية والثقافية التى تثير عديداً من الإشكاليات والمشكلات التى تحتاج إلى بحوث متعمقة، وإلى مبادرات سياسية شتى.

وحيث نتحدث عن البحر الأبيض المتوسط فلا بد أن نقرر أنه فى البداية كان فرناند برودل. هذا المؤرخ الفرنسى العظيم الذى يعتبره عديد من الباحثين أبرز مؤرخ فى القرن العشرين.

لقد ارتبطت حياة برودل بالبحر الأبيض المتوسط منذ شبابه حين استعد لإعداد رسالة دكتوراه في الموضوع عام 1938، ولم يتح له أن يكتبها إلا في المعتقل حين اعتقله الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية.

وكان موضوع الدكتوراه التي نشرت ككتاب عام 1946 هو "البحر الأبيض المتوسط والعالم المتوسطي في عصر فيليب الثاني".

ومنذ صدور هذا الكتاب حدث انقلاب في المنهج التاريخي. ذلك أن برودل مارس كتابة "التاريخ الشامل" للمتوسط من خلال نظرة موسوعية نادرة، جعلته يعالج السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة من خلال "المنهج المترابط".

وما زال هذا الكتاب يثير دهشة المؤرخين والباحثين في كل قارات العالم، لأن برودل كان مبدعاً وخلقاً في عملية التأليف Synthes بين الأفكار في الوقت، الذي كان معنياً بأدق التفاصيل.

والكتاب يتكون من جزئين، ويضم الجزء الأول قسماً أساسياً ويضم كل قسم عديداً من التفاصيل. القسم الأول عنوانه "دور البيئة". والقسم الثاني عنوانه: "المصائر الجماعية والاتجاهات العامة" والذي يمتد إلى الجزء الثاني من الكتاب. ثم نأتى للجزء الثالث وعنوانه "الأحداث والسياسات والناس" قبل أن يخلص إلى خاتمة الكتاب.

برودل هو الذي وضع قواعد المنهج في البحث التاريخي المعاصر، وقد ورث وطور تراث مدرسة الحوليات Les annals التي ضمت في جنباتها نخبة من ألمع المؤرخين الفرنسيين، الذين مازالوا حتى اليوم يثرون المعرفة التاريخية بأبحاثهم التي يطبقون فيها مناهج مستحدثة، والتي يركزون فيها على ما يطلق عليه "تاريخ العقليات".

غير أن متابعتنا لحركة البحث التاريخي العالمية تؤكد لنا أن المنهج الموسوعي الشامل لبرودل من الصعب بمكان تطبيقه. فالأجيال الجديدة من المؤرخين لا تملك قدرة برودل الخلاقة في مجال التأليف بين الأفكار، ولا القدرة الفذة على جمع وتحليل التفاصيل الدقيقة. لقد ترك برودل تأثيراً بالغاً على أجيال عديدة من المؤرخين والباحثين، وحاول بعضهم بقدر ملحوظ من النجاح تطبيق منهجه.

ولعل أبرزهم جميعاً إمانويل فالرشتين الذي أخرج كتابه الموسوعي "النسق العالمي الحديث" في جزئين الأول عن الزراعة الرأسمالية وأصول الاقتصاد العالمي الأوروبي في القرن السادس عشر والثاني عن المركنتالية وترسيخ دعائم الاقتصاد العالمي الأوروبي من عام 1600 حتى عام 1750م.

نشرت الكتاب المطبعة الأكاديمية في نيويورك، عام 1974 وأصبح منذ نشره دعامة أساسية لمدرسة علمية جديدة هي "مدرسة النسق العالمي" التي أتيح في ظلها عشرات الباحثين من مختلف البلاد بحوثاً أصلية.

كان فالرشتين متأثراً متأثراً بالغاً بأبحاث برودل كما تشهد على ذلك استشهاداته العديدة من أبحاثه.

باختصار يمكن القول أن أي حديث عن البحر الأبيض المتوسط لابد أن يبدأ بالحديث عن فرناند برودل مؤسس "بيت الإنسان" في فرنسا وعضو الأكاديمية الفرنسية.

القسم الأول

البحر الأبيض المتوسط باعتباره منطقة استراتيجية

مقدمة:

هناك إجماع بين المؤرخين والباحثين في العلم الاجتماعى بشكل عام أن الحديث عن البحر الأبيض المتوسط لابد له أن يستوحى فى المقام الأول كتاب فرناند برودل "البحر الأبيض المتوسط والعالم المتوسطى فى عصر فيليب الثانى".

وكما يقرر المؤرخ الأمريكى بول دوفر أن البحث فى موضوع البحر الأبيض المتوسط لابد له أن يدور حول مؤلف مفرد كتبه مؤرخ مفرد هو برودل. وهذا المؤلف الذى مضى على كتابته خمسون عاماً كاملة، مازال هو الكتاب المرجعى فى الموضوع، بالرغم من عشرات البحوث التى صدرت بعد نشره.

ويلفت النظر بهذا الصدد أن بروديل هذا المؤرخ الموسوعى العظيم قرر فى مقدمة الترجمة الإنجليزية لكتابه التى كتبها عام 1972 ونشرت مع الترجمة عام 1976 أنه لم يكن يستطيع أن ينشر الكتاب الذى طبع عام 1946 كما هو، أو حتى فى طبعته الفرنسية الثانية التى صدرت عام 1963، لسبب بسيط مؤداه الإنتاج العلمى الغزير لعشرات المؤرخين الذى كتبوا بعد نشر كتابه. ولذلك اضطر إلى إعادة صياغة عديد من فصول كتابه فى ضوء النتائج العلمية التى توصل إليها هؤلاء الباحثون، ومن بينهم تلاميذه المباشرين. غير أن هذه العملية كانت بالغة الصعوبة لأنه أراد فى نفس الوقت أن يحتفظ بالطابع الأصيل لكتابه فى طبعته الثانية.

ويقرر بول دوفر أن برودل وهو مازال شاباً تأمل البحر بعمق لأنه كما قرر هو نفسه "أحب المتوسط بعاطفة مشبوبة" واكتشف مبكراً حقاً أنه لا يستطيع دراسة المتوسط باعتباره مجموعة توارىخ جزئية، ولكن ينبغى أن يركز عليه باعتباره وحدة كلية. وذلك على أساس أن سكان بلاد المتوسط كانت تجمعهم السمات العامة للاقتصاد والجغرافيا، بالرغم من اختلاف عقائدهم ولغاتهم وتقاليدهم.

ومن هنا قرر برودل أن يكتب "تاريخاً شاملاً Total History" للبحر الأبيض المتوسط فى مفهومه الواسع. وذلك آخذاً فى اعتباره الجغرافيا الطبيعية والإنسانية والمناخ وأنماط التجارة ووسائل النقل والاتصالات، والمجتمعات والحضارات السائدة والأديان والأعراف. لقد كانت أفكار برودل حين صاغها فى رسالته للدكتوراه التى نشرها من بعد فى الكتاب ثورية حقاً، وأثرت على الرؤى النظرية والمنهجية لأجيال عديدة من الباحثين.

ويقرر بعض كبار المؤرخين (بول دوفر) أنه لا يمكن لك بعد أن تقرأ كتاب برودل أن تفكر في البحر الأبيض المتوسط كما كنت تفكر فيه من قبل، بل إن فهمك للتاريخ نفسه كفن وعلم سيختلف، لأنه قدم منهجاً شاملاً ومبتكراً لكتابته، يقوم على أساس المزج الدقيق بين مفاهيم ونظريات كل العلوم الاجتماعية، لكي يقدم تاريخاً شاملاً من شأنه أن يضيء موضوع البحث كما لم يحدث من قبل في الدراسات التاريخية.

غير أن برودل وإن كان قد قدم ثروة من المعرفة للمؤرخين، إلا أنه في الوقت ذاته أتاح لهم فرصة نقد بعض تعميماته ونظرياته، مما فتح الباب أمام حوار علمي عميق بين المتخصصين في العلوم الاجتماعية المختلفة، وذلك لأنه كان غزير الإنتاج ونشر بعد كتابه الموسوعي عديداً من الكتب عن "الحياة المادية للأسمالية" وعن "قواعد الحضارات" وغيرها. Grammaire de civilizations. ومن بين أهم الانتقادات التي وجهت إلى برودل خمسة أسئلة رئيسية.

أولاً هل البحر الأبيض المتوسط تسوده حقيقة ثقافة مفردة Mono culture ؟ أم أن المنطقة يمكن أن تعرف بشكل أفضل لو تم الالتفات إلى تعدد الثقافات فيها؟ وثاني هذه الملاحظات هو السؤال عما إذا كان برودل قد قلل من أهمية العوامل غير الاقتصادية في تاريخ المجتمعات، مثل الدين، والطقوس، والاتجاهات القومية؟

وثالث هذه الملاحظات هو التساؤل عما إذا كان برودل ومعه أعضاء مدرسة الجوليات Les Annales لا يقدرون تأثير الأفراد على مسار التاريخ الإنسان حق قدره؟ ورابع هذه الملاحظات التساؤل عما إذا كان "التاريخ الشامل" بطريقة برودل يمكن كتابته حقاً، وهل يستحق الجهود الكبيرة لتسجيله، أم أن غيره من المناهج التاريخية أحق بالاتباع، وخصوصاً التاريخ الجزئي Micro history.

وأخر الملاحظات التساؤل عن القوى الواقعية للتغيير التاريخي سواء في البحر المتوسط أو في الدوائر الأوسع.

وهناك انتقادات أخرى لنظريات برودل ربما كان أكثرها عمقاً دراسة أندريه جوندر فرانك "اقتصادات عالمية أم اقتصاد عالمي واحد: قراءة نقدية لمنظور برودل للعالم" نشرها عام 1993.

ومع ذلك يمكن القول أن إشعاع منهج وفكر برودل سطع في مختلف بلاد العالم بالإضافة إلى فرنسا التي كرمته بأن كلفته أن يؤسس أكبر معهد علمي "للبحوث المترابطة" وأعني "بيت الإنسان" Maison de L' homme الذي جمع فيه أقطاب العلم الاجتماعي الفرنسي بعد تجربته

فى "مدرسة الدراسات العليا" L'ecole d'haud etudes الذى جمع فيها نخبة العلماء الاجتماعيين الفرنسيين المجددين الذين فتحوا آفاقاً واسعة فى الفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع والنقد الأدبى، وكان من بينهم الفيلسوف الشهير ميشيل فوكد، والناقد الأدبى جان بارت.

ومما يكشف عن عظم التأثير الفكرى لبرودل أن جامعة بينجهامتون Binghamton فى إنجلترا أنشأت عام 1976 مركز فرناند برودل وأجرت فيه عديداً من البحوث الرائدة فى موضوعات متعددة. (راجع تقرير المعهد بعنوان: تقرير عن مشروع فكرى، مركز فيرناند برودل 1976 – 1991).

وأيا ما كان الأمر، فإننى أخشى أن يأخذنا الحديث عن المؤرخ العظيم برودل بعيداً عن موضوعنا الأصلي وهو "البحر الأبيض المتوسط باعتباره منطقة استراتيجية".
والواقع أن المتوسط كمنطقة استراتيجية يثير عديداً من المشكلات التى تحتاج إلى التحليل.

غير أننا آثرنا أن نختار ثلاث موضوعات رئيسية أولها الشراكة الأوروبية المتوسطية والأقاليم الفرعية Sub – Regionalism دراسة حالة لتأسيس منطقة متميزة.
وثانى هذه الموضوعات يتعلق ببناء الأمن الإقليمى.

ونظراً لتعدد الموضوعات وضيق المجال سنكتفى بطرح الملامح العامة لكل مشكلة من هذه المشكلات.

أولاً: الشراكة الأوروبية المتوسطية والأقاليم الفرعية دراسة حالة لتأسيس منطقة متميزة

نعتمد فى طرح هذا الموضوع على بحث ستيفن كاليا Stephen C. Calleya الذى نشره فى أبريل 2004 باعتباره ورقة عمل قدمها "لمعهد الدراسات الأوروبية" بجامعة كاليفورنيا، بيركلى).

وهو يركز فى بحثه على تقسيم منطقة البحر الأبيض المتوسط إلى أقاليم محددة كأداة لبناء منطقة متميزة فى إطار الشراكة الأوروبية المتوسطية. وهو يعالج سؤالاً مفاده هل – وضعا فى الاعتبار الصعوبات التى تقابلها الشراكة الأوروبية المتوسطية – من الأفضل تقسيم جنوب المتوسط إلى مناطق فرعية مثل "المغرب والمشرق" كأداة فعالة لتأسيس منطقة متميزة؟

وهو يرى ابتداءً أنه إذا كان الاتحاد الأوروبى جاداً حقيقة فى أن يكون له تأثير إيجابى له دلالة على التكامل المناطقى Regional integration فى المتوسط وذلك فى الأجل القصير،

فمن الضروري صياغة استراتيجية مناسبة لدعمه بطريقة أكثر مباشرة فى كل المناطق الفرعية فى جنوب المتوسط.

* * *

ويمكن القول أن العقد الأخير من القرن العشرين شهد انبعثاً لديناميات التكتل الإقليمي فى العلاقات الدولية. وقد أدت عملية التحرر من الاستعمار Decolonization ونهاية الحرب الباردة، إلى خلق بيئة مساعدة على زيادة معدلات تفاعل أنماط التكتلات الإقليمية، ومن هنا يمكن القول أن الاتحادات الإقليمية أصبحت من السمات الرئيسية للنظام الدولى الراهن. وقد ظهر الاتحاد الأوروبى وكأنه القطب البديل فى مجال العلاقات الدولية بعد الولايات المتحدة الأمريكية. وفى العشر السنوات الأخيرة تعددت المبادرات لبلورة مفهوم الاتحادات الإقليمية فى البحر الأبيض المتوسط.

ولدينا فى هذا المجال عدة مبادرات:

1 - المنتدى المتوسطى العربى: مباحثات الـ 5 + 5:

The west Mediterranean forum: the 5 + 5 talks

وقد بادرت فرنسا بهذه المبادرة عام 1990. وهو يتكون من خمس دول أوروبية: فرنسا وإيطاليا ومالطة والبرتغال وأسبانيا. وخمس دول عربية ممن ينتمون للاتحاد المغربى وهى: الجزائر، ليبيا، موريتانيا، المغرب وتونس.

والغرض من هذا التكتل هو تأسيس منتدى للأمن فى المتوسط مبنياً على بنية مرنة للحوار، والتشاور والتعاون.

والمفروض أن تعقد الاجتماعات الوزارية مرة فى السنة، وتتشكل جماعات عمل لمناقشة مشكلات التصحر، وتدفق الهجرة، والحفاظ على التراث الثقافى.

2 - منتدى البحر الأبيض المتوسط: The Mediterranean forum

نشأ هذا المنتدى عام 1994 بمبادرة من مصر وفرنسا. وقد أسس ليكون أداة للتعاون وكان مخططاً له أن يكون مرناً فى أنشطته والمنتدى يضم 11 دولة هى:

الجزائر، مصر، فرنسا، اليونان، إيطاليا، مالطة، المغرب، البرتغال، أسبانيا، تونس وتركيا.

وقد شكلت جماعات عمل لمناقشة موضوعات سياسية والاقتصادية واجتماعية وثقافية.

3 - مجلس البحر الأبيض المتوسط: The counset of the Mediterranean (C. M)

بادرت بتأسيسه مالطة وذلك فى سياق ندوة عقدت فى تونس عام 1992. وقد أريد منه أن يحاكي نموذج مجلس أوروبا.

وعضوية هذا المجلس تضم الاتحاد الأوربي، والاتحاد المغاربي، وجامعة الدول العربية. وشروط الانضمام للمجلس الإيمان بمبادئ ميثاق الأمم المتحدة، واحترام كرامة الكائن الإنسانى، وسيادة القانون، واحترام سيادة القانون، واحترام إقامة وتنمية مؤسسات تمثيلية.

4- مؤتمر الأمن والتعاون فى البحر الأبيض المتوسط

The Conference on Security and cooperation in the Mediterranean (cscm)

ترد نشأة هذا المؤتمر إلى إعلان وزير الخارجية الإيطالى جيانى ميخاليس فى الاجتماع الوزارى الذى انعقد فى باريس للحوار الأوروبى العربى فى ديسمبر 1989، وكذلك لتصريح وزير الخارجية الأسباني فرانشيكو فرنانديز فى مؤتمر أوتوا outtawa عن السماوات المفتوحة فى فبراير 1990 ومع ذلك فقد تأسس المؤتمر رسمياً فى بالما دى مايو ركا فى سبتمبر 1990.

وقد خصص هذا المؤتمر للحوار حول موضوعات الأمن. والغرض كان تأسيس مجتمع دولى متوسطى من خلال إدارة الاعتماد المتبادل بين أوروبا الغربية والشرق الأوسط. وهذه الأغراض خطط لتحقيقها من خلال ميثاق متوسطى يتكون من ثلاثة سلال: Baskets.

- سلة للأمن مبنية على أساس مؤتمر هلسنكى للأمن والتعاون.

- سلة اقتصادية لمحاولة إحداث تنمية اقتصادية أكثر توازناً فى المتوسط.

- وسلة الأبعاد الإنسانية، وتتأسس على أساس التوفيق بين مختلف أنساق القيم فى المتوسط.

غير أن هذا المؤتمر ظل مجرد اقتراح، لأنه لم يحدث إجماع حوله فى بالما.

غير أنه فى عام 1992 انعقد اجتماع فى ملقا Malaga نظمه اتحاد البرلمانين.

وتوصل المؤتمر إلى وثيقة نهائية قسمت إلى 3 أقسام:

القسم الأول موضوعات الأمن

القسم الثانى أهداف التنمية المشتركة والشراكة، ويتضمن ذلك تنمية إنتاج الطعام، إعادة هيكلة الديون، والأمن البيئى: وحركات الهجرة واللجوء.

والقسم الثالث ركز على حقوق الإنسان.

5 - الشراكة الأوروبية المتوسطية: The Euro- Mediterranean Partnership

هذه الشراكة هي أهم عملية تنمية موجودة الآن في المتوسط لأنها تضم كل الدول أعضاء الاتحاد الأوروبي، و 12 دولة متوسطة هي: المغرب، والجزائر، وتونس، ومصر، والأردن، وإسرائيل، وسوريا، ولبنان، والسلطة الفلسطينية وتركيا وقبرص ومالطة.

انعقد المؤتمر التأسيسي في برشلونة عام 1995. وإن كان قد عجز عن تحقيق أى تقدم.

ومن باب التقييم النهائى يمكن القول أن البحر الأبيض المتوسط والعالم العربى أقل المناطق مأسسة بالنظر إلى التعاون الإقليمى بالرغم من أن جامعة الدول العربية تعد أقدم المنظمات الإقليمية.

ويظل السؤال قائماً هل تستطيع الدول العربية أن تتعاون لخلق شبكة من علاقات التعاون الإقليمى، على غرار الاتحادات الإقليمية فى عديد من القارات مثل الاتحاد الأوروبى، والنافتا، والآسيان، وكلها اتحادات إقليمية فاعلة.

ولعل أسباب الفشل الإقليمى فى المتوسط يرد إلى أن الباحثين افترضوا وجود فضاء متوسطى عام ولم يكن هذا صحيحاً، لأن هذا الفضاء لم يتشكل بعد كوحدة عضوية لأسباب شتى، وافترضوا أيضاً التزام الدول العربية بتحقيق الإصلاح السياسى ولم يتحقق هذا الإصلاح حتى الآن.

غير أن أسباب الفشل الإقليمى فى المتوسط - إن أردنا التعمق فى البحث- ترد أساساً كما سنبين إلى الصراع الثقافى حول مفهوم الأمن فى البلاد العربية والبلاد الأوروبية.

القسم الثانى

الصراع الثقافى حول مفهوم الأمن بين الدول الأوروبية والدول العربية

يقول الأستاذ فولفيو أتينا Fulvio Attina من جامعة كاتانيا Catania فى بحث ممتاز له فى موضوعنا قدمه لمعهد الدراسات الأوروبية فى جامعة كاليفورنيا بيركلى عام 2004 فى صدر بحثه:

"وفقاً لعدد من علماء السياسة فإن البحر الأبيض أصغر من أن يكون منطقة متميزة region وأقرب ما يكون إلى مكان جغرافى يتسم بديناميات الانقسام، وبالمشكلات الضخمة وبالهويات القوية، ذلك فى المناطق الفرعية للتفاعلات التى تدور فى جنباته".

وفى تقديرنا أن "أتينا" قد وضع يده بهذه العبارة على إشكالية البحر الأبيض المتوسط الذى ينظر إليه باعتباره فضاء متميزاً، فى حين أنه يفترض لشروط هذا الفضاء، لأنه يسود بين الدول الواقعة عليه عديد من الخلافات، فى الوقت الذى تتنوع فيه الثقافات، التى تتعاون حيناً وتتصارع أحياناً أخرى. ولعل هذه الحقائق هى التى جعلت نجاح الشراكة الأوروبية المتوسطية مسألة صعبة، وخصوصاً فى مجال العلاقات بين الدول الأوروبية ومجتمعات شمال أفريقيا.

ومع ذلك يمكن - كما يقرر فولفيو أتينا - التمييز فى الجدال الدائر حول المتوسط بين تفسيرين أساسين للوضع الراهن.

التفسير الأول يركز على ثنائية الهيمنة والسيطرة hegemony / domination

والتفسير الثانى يركز على ثنائية التنشئة والإدماج Socialization / Inclusion

بالنسبة للتفسير الأول فإنه يمكن القول بأن "عملية برشلونة" Barcelona Process أطلقت كمبادرة لى تضم الشركاء المتوسطيين فى منطقة اقتصادية تقودها أوروبا.

والمنطق الثلاثى الذى حكم المبادرة والطبيعة المتعددة الأبعاد للتعاون المقترح، يتضمن السياسة والأمن والثقافة والأمور الإنسانية، بالإضافة إلى التعاون الاقتصادى. وكان الغرض هو جعل المتوسط نسقاً مستقراً سياسياً واجتماعياً وثقافياً، وذلك سعياً وراء هدف نهائى هو خلق هيمنة أوروبية مستمرة على المنطقة.

أما التفسير الثانى فهو على العكس يهدف إلى التركيز على أن هدف الشراكة هو خلق منطقة يسودها الرخاء والاستقرار والسلام، وليس هناك محل لمحاولة خلق علاقات غير متساوية بين الشركاء.

ومن أجل تحقيق هذا الهدف فإن مؤسسات الاتحاد الأوروبي وحكوماته سعت حتى تدفع الشركاء المتوسطيين لاحترام المعايير والممارسات المطلوبة لتحقيق النمو الاقتصادي والاستقرار السياسي والحل السلمي للنزاعات.

ووفقاً لهذا المنظور فإن "عملية برشلونة" تهدف إلى تقليل الفجوة بين المجتمعات والدول التي تقع على ضفتي المتوسط، ومحاولة لإدماج الشركاء المتوسطيين في النسق الكوني الليبرالي الجديد، والسعى لتحقيق عملية تنشئة لكل الأقطار المشاركة من خلال تطبيق نفس الممارسات.

والاختلاف في الرأي بين هذين المنظورين للبحر الأبيض المتوسط يعكس في الواقع الخلاف الرئيسي بين المنظرين في العلاقات الدولية في تناولهم لمشكلة التعاون الإقليمي.

والتيار الغالب يرى أنه لا مجال لنجاح الاتحادات أو التكتلات الإقليمية إلا لو كان هناك تشابه بل تجانس بين الدول الداخلة في الاتحاد، في مجال الثقافة وطبيعة المؤسسات، باعتبار ذلك شرطاً ضرورياً للتعاون السياسي بين الدول، وتبنى معايير مشتركة لإدارة الصراعات داخلها.

ووفق هذا الرأي فإن الاختلافات في مجال الثقافة والمؤسسات من شأنه أن تحدث عدم الاستقرار والصراع، وتقضى على أي إمكانية للتعاون والتكامل.

غير أن المنظور الثاني لا يرى ضرورة للتشابه الثقافي أو المؤسسي. ويرى أن التعاون الإقليمي يحدث في العالم المعاصر حين تعترف الحكومات أن النفاوض لوضع سياسة للتعاون مسألة ضرورية لحل المشكلات المشتركة بالنسبة للدول التي تشارك في نفس المنطقة الجغرافية. بعبارة أخرى - وبغض النظر عن أهمية التشابه - فإن هناك فرص واسعة للتعاون في مجالات التلوث والهجرة والأمن ومكافحة الجريمة المنظمة والتجارة غير المشروعة.

وهكذا يمكن القول أن تطبيق المنظور الثاني الذي لا يركز على التشابه الثقافي بين الدول، ولا على التجانس المؤسسي هو الذي من شأنه أن ينمي إمكانيات الشراكة الأوروبية المتوسطية.

غير أنه وبغض النظر عن مقولات التشابه والاختلاف بين الدول في المتوسط، فإن أهم من ذلك بكثير دراسة وتحليل ما يمكن أن نطلق عليه ثقافات الأمن الأوروبية والعرقية.

وثقافة الأمن بحسب التعريف - تتمثل أساساً في نمط إدراك مشكلات الأمن وإدارة علاقات الأمن الخارجية، وفق ما يراه القادة السياسيون والثقافة السائدة في المجتمع.

وثقافة الأمن كمفهوم يستخدم لتفسير سياسات الأمن والقرارات التي تتخذها الدول، متأثرة في ذلك بخيراتها الماضية المعاصرة في التعامل مع مشكلات الأمن. وبشكل أكثر تحديداً يمكن القول أن الخبرات السابقة المعاصرة والمعتقدات والتقاليد والرموز، تتضافر مع بعضها البعض لتشكيل ثقافة الأمن في بلد ما.

(أنظر تطبيق هذا المفهوم في مجال الصراع العربي الإسرائيلي بالنسبة لإسرائيل وبالنسبة للدول العربية، حتى منها التي وقعت معاهدة سلام مع إسرائيل مثل مصر والأردن) وثقافة الأمن هي التي تشكل تفضيلات الحكومات فيما يتعلق بآليات محددة لتحقيق الأمن. كما أن لتعلم من الخبرات الماضية المعاصرة، من شأنه أن يحدث تغييراً في اتجاهات ثقافة الأمن، مما يدفع إلى تطبيق استراتيجيات جديدة للأمن.

ومن ثم يمكن القول أن لثقافات الأمن في كل من البلاد الأوروبية والعربية تأثيراً حاسماً على نجاح أو فشل مشاريع الشراكة الأوروبية المتوسطية.

ولعله قد آن الأوان لكي نستعرض الملامح البارزة لثقافة الأمن في البلاد الأوروبية والبلاد العربية.

ثقافة الأمن الأوروبية:

يمكن القول أن ثقافة الأمن الأوروبية السائدة ساعدت على تشكيلها ثلاث خبرات معاصرة:

(1) استراتيجية الردع النووي ومفاوضات الحد من التسلح في عصر الحرب الباردة وخبرات سياسة الوفاق detente.

(2) عملية هلسنكي التي تمت فيها تنمية الأفكار عبر ثلاثة عقود، وتشكلت آليات لتحقيق الأمن الشامل والتعاون.

(3) صياغة سياسات قومية ومتعددة الأطراف في التسعينيات للحد من تزايد أسلحة الدمار الشامل في الدول، والفاعلين من غير الدول، والذين لا يتمتعون بالحساسية اللازمة بالمنطق المتفق عليه في الاستراتيجية العسكرية:

(يلاحظ هنا التفسير الاستشراقي للتفرقة بين الدول المتحضرة والدول البربرية!)

إشارة إلى مؤتمر روما وتصريح العقيد البحري الإيطالي بخطورة أن تمتلك دول يقودها قادة يفتقرون إلى العقلانية أسلحة ذرية، وكأن الدول الغربية هي فقط التي تمتلك عقلانية إلقاء القنابل الذرية في الوقت الذي تريده!

(تراجع أحداث هيروشيما ونجازاكي!)

ثقافة الأمن فى الدول العربية:

فى البداية يمكن التأكيد على أن هناك علاقات وثيقة وعوامل ثقافية ولغوية ودينية تربط بين الشعوب العربية فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بغض النظر عن وجود حدود بينها. وهذا هو الذى يجعل القادة العرب يؤكدون على دعمهم لكل الشعوب العربية، كشرط أساسى لضمان أمن كل دولة عربية على حدة.

وفى نفس الوقت فالحكومات العربية معنية للغاية بالتهديدات الموجهة لاستقرار نظمها السياسية وأمن النخب الحاكمة. ولذلك هى تهتم بالحركات العابرة للحدود الجغرافية، ونعى الحركات القومية، باعتبارها قد تكون فى بعض الأحيان أحد أسباب عدم الأمن لبلادهم أو لنظمهم السياسية.

ويمكن القول أن ثقافة الأمن السائدة فى البلاد العربية تؤسس على وجهتى نظر. وجهة النظر القومية التى تؤكد أهمية الوحدة العربية لتحقيق الأمن والسلام والرخاء، وللدفاع ضد أى عدوان خارجى.

ووجهة النظر الأخرى التى لا تتحمس كثيراً لهدف الوحدة العربية، ولكنها تركز فى نفس الوقت على أهمية إقامة علاقات عربية عربية وثيقة فى مجالات الاقتصاد والثقافة أساساً. لأن السياسة قد يكون لها منطلقت مختلفة بالنسبة لكل دولة.

وليس هناك مجال للتفصيل فى صعود وسقوط الخطاب القومى العربى التقليدى، وسيادة الخطاب القطرى فى الوقت الراهن، الذى يعلى من شأن مصالح الدولة على ما كان يطلق عليه فى الماضى المصالح العليا العربية.

ولعل مما يؤكد ذلك أن سيادة الخطاب القطرى أدى إلى تغييرات جوهرية فى ثقافة الأمن العربية، واتخذت هذه التغييرات اتجاهين رئيسيين:

الاتجاه الأول: دول عربية مثل مصر والأردن وقعتا معاهدات سلام مع إسرائيل، ويعد ذلك أهم تغيير نوعى فى مسار الصراع العربى الإسرائيلى.

الاتجاه الثانى: تحالف دول الخليج العربية كلها تقريباً مع حلف الأطنطى بالتطبيق لمبادرة اسطنبول التى صدرت عام 2004.

وهذه المبادرة أعلنت بكل وضوح أن الحلف فى صورته الجديدة يسعى إلى توسيع نطاق عمله لى يقود عملية الأمن فى العالم العربى، ليس ذلك فقط بل إنه مد نطاق اهتماماته إلى

عملية الإصلاح السياسى وتحقيق الديمقراطية فى العالم العربى، وإدماجه فى إطار الاقتصاد العالمى.

وهكذا يمكن القول أنه فى مجال ثقافة الأمن فى الغرب والشرق على السواء ليست هناك ثوابت دائمة، بل إن التغييرات يمكن أن تصيبها وتغير اتجاهاتها بشكل جزئى أو كلى، وفق التغييرات التى تلحق بينية المجتمع العالمى والنظام الإقليمى على السواء.

القسم الثالث

الحوار الثقافى كأساس للتعاون فى البحر الأبيض المتوسط

الحوار مع الآخر: مبادئ وتوصيات

بدعوة من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة وبالتعاون مع اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم فى دولة الإمارات العربية المتحدة، عقدت بمدينة أبو ظبى فى الفترة من 4 إلى 7 كانون الثانى/ يناير 2006 مجموعة خبراء عرب اجتماعاً للتدارس فى شأن الحوار الثقافى والحضارى قصد الوصول إلى صياغة عدد من المبادئ والتوجهات والتوصيات العملية فى الحوار مع الآخر. وقد خلص المجتمعون إلى وضع الوثيقة التالية:

مسوغات الحوار مع الآخر:

يعيش عالم اليوم عصر العولمة التى اسهمت فى تدفق الأفكار والسلع والخدمات عبر البلدان وبين الشعوب. وتنزع العولمة إلى توحيد العالم فى مختلف مجالات السياسة والاقتصاد والمجتمع والثقافة - وهو توحيد يحمل مخاطر جدية تهدد بإلغاء التنوع الثقافى. ومع بلوغ العولمة مرحلة سيطرة القطب الواحد فى المشهد العامى والعمل على تهميش كثير من الشعوب وعديد الثقافات، انبرى عدد من الدول، بما فيها دول عربية، لمواجهة هذه العولمة الخطرة وردء أخطارها. وعقدت مؤتمرات عدة للحوار السياسى والثقافى والاقتصادى شاركت فيها نخب ثقافية عربية متميزة ناقشت موضوعات محورية لتحديد المصالح المشتركة بين العرب والشعوب الأخرى. وكان من تلك الموضوعات على سبيل المثال لا الحصر: قضية العوية، والصراع العربى الإسرائيلى، ومخاطر الدمج بين المقاومة والإرهاب، وافتعال الصدام بين افسلام والغرب، وانقسام العالم بين شمال غنى وجنوب فقير، فضلاً عن مشكلات البيئة والتصحر والبطالة والجوع والأمراض والأمية وغيرها.

لقد أصبحت موجبات الحوار مع الآخر فى هذا العصر أكثر إلحاحاً مما كانت عليه فى السابق. وذلك يتطلب محاورة العالم فى عصر العولمة انطلاقاً من مقولاتها الأساسية التى تشدد على الديموقراطية فى المستوى السياسى، والليبرالية فى المستوى الاقتصادى، وبناء الدولة العصرية القادرة على نشر العلوم العصرية والتكنولوجيا المتطورة التى تشكل القاعدة الأساسية للإنتاج فى ظل التحولات الاقتصادية والاجتماعية فى عالم اليوم.

لكن حوار العرب والمسلمين مع الذات لا بد أن يسبق الحوار مع الآخر أو أن يسيران جنباً إلى جنب. كما لا بد أن يرتكزا على قاعدة الإيمان الراسخ بالتعددية الثقافية، ومعرفة الذات ومساءلتها، وبلورة أطر مرجعية للحوار البناء مع الآخر، ورفض الاستبداد، وكافة أشكال

التمييز العرقي والديني، وتبنى الدولة المدنية القادرة على تحقيق العدالة الاجتماعية والتنمية البشرية المستدامة. ويهدف الحوار مع الذات أيضاً للحفاظ على التنوع الثقافي فى الوطن العربى فى إطار الوحدة، وضمان الانفتاح على الثقافة الكونية ورفض كل أشكال التعصب والانغلاق والاستعلاء والعنصرية، وقبول الآخر وتعزيز روح التسامح واحترام التراث الروحي والثقافي لكافة الشعوب.

إن العرب والمسلمين هم اليوم فى قلب الصراع الدولى المتفجر حالياً فى العالم على العديد من الجبهات السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية. ولا يستطيع المتقف العربى والمسلم أن يقف مكتوف اليدين إزاء ما تواجهه الشعوب العربية والإسلامية من تحولات مصيرية فى منطقة الشرق الأوسط ولعل من أخطر ما يجرى الإعداد له فيما يسمى بمشروع الشرق الأوسط الكبير والتعننت الإسرائيلية وعرقلة قيام دولة فلسطينية، وكذلك التكتلات الجغرافية والسياسية الكبيرة التى يشهدها العالم فى المرحلة الراهنة.

لهذا يدعو المتقفون العرب والمسلمون إلى فتح باب الحوار بينهم وبين الشعوب الأخرى. وهم يرفضون بشدة محاولات تهيمش الشعوب العربية والإسلامية، أو المساعى الرامية إلى إعادها عن القرارات المصيرية التى تطل مستقبل العرب والمسلمين، دولا وشعوباً وثقافةً.

وعبر الحوار الإيجابى البناء مع الآخر يسعى العرب والمسلمون إلى أن يحققوا لأنفسهم موقعاً متقدماً فى خارطة العالم فى عصر العولمة، رافضين بأن يحدد لهم الآخرون هذا الموقع، لأى سبب أو ذريعة. والآخر ليس الغرب فحسب، بل كافة الشعوب فى الدول الآسيوية والأفريقية ودول أميركا اللاتينية، وهى شعوب يشترك العرب والمسلمون معها فى كثير من المسائل السياسية والثقافة والاجتماعية، فضلاً عن القضايا ذات الطبع الإنسانى المشترك.

إن الحوار الذى يسعى إليه العرب والمسلمون فى هذه المرحلة المصيرية من تاريخ الإنسانية هو الحوار المبني على حرية الاختيار وشرعية الاختلاف، واحترام الآخر المختلف فى اللون والعرق واللغة والدين والثقافة. ومن أولى شروط نجاح الحوار العربى والإسلامى مع الآخر أن يتخلص المتقفون العرب والمسلمون من عقدة الذنب أو الشعور بأنهم متهمون، فى خطابهم، وأن يتخلوا عن الأسلوب الاعتذارى والدفاع المستمر عن الذات. ولا بد أن ندرك أن الحوار الذى يجريه العرب والمسلمون فى عصر العولمة محكوم بظروف دولية معقدة للغاية على كافة المستويات، إذ تصاغ برامج وترسم خطط خارجية تفرض على الشعوب، ومنها العرب والشعوب الإسلامية، فى إطار ما يعرف باسم حرب الأفكار، وإعادة تشكيل الآخر وفق ثقافة منمطة وموحدة يفرضها القطب الأمريكى الأقوى الذى يتفرد باتخاذ الكثير من القرارات المصيرية التى تطور مستقبل البشرية جمعاء.

وفى ظل ظروف دولية معقدة كهذه تغدو ملحة حاجة العرب والمسلمين وشعوب أخرى فى العالم، إلى إجراء حوار فيما بينهم لترسيخ أسس عقلانية لعلاقات دولية جديدة تقوم على تغليب مبادئ السلام والاحترام والمتبادل وحق الاختلاف على مقولات القوة والهيمنة والتسوط والتعالى ورفض الآخر.

مبادئ الحوار العربى والإسلامى المتكافئ مع الآخر:

لعل ابرز أهداف الحوار البناء مع الذات ومع الآخر أن يصار إلى إرساء قواعد مشتركة للتفاهم بين جماعات بشرية مختلفة فى المعتقد الدينى والمبدأ السياسى والنظرة إلى الحياة. وذلك يتطلب الالتزام بقواعد الحوار العقلانى مع الآخر ومبادئه، وأبرزها:

1 - معرفة الذات أولاً وممارسة النقد الذاتى للواقع الاقتصادى والسياسى والاجتماعى والثقافى الذى يعيشه العرب اليوم، وقد أوصلهم إلى ما هم عليه الآن من الوهن والتفكك على المستوى الإقليمى وما يستتبعه ذلك من انعدام الفعل على المستوى الدولى. فلا يمكن للعربى أو المسلم والحال هذه، أن يقدم نفسه فى حوار مع الآخر فى صورة الذات المكتملة الخالية من العيوب والسلبيات. فلا بد من القيام بنقد إيجابى عميق للثقافة العربية والإسلامية السائدة اليوم، والعودة إلى التراث العربى والإسلامى وإعادة قراءته قراعية نقدية واعية للبحث فيه عن الذرى المشرقة المتمثلة فى العقلانية والانفتاح والتسامح وتوظيفها لبناء مشروع حضارى جديد، وإقامة حوار متكافئ وبناء مع الآخر.

وما من شك فى أن الغرب الأوروبى الحديث كان أول من أبدع مقولات ثقافية كانت الأكثر تأثيراً فى تاريخ العالم الحديث والمعاصر. وكان صانع الثورات الصناعية والتكنولوجية الأولى التى استفادت منها وطورتها دول الشرق الأقصى فى تجارب التحديث فى القرن العشرين. من هنا فإن المعرفة النقدية المعمقة لمقولات الغرب الثقافية واستيعابها وتجاوزها، هى المدخل السليم لأى حوار إيجابى ومثمر مع دول الغرب الأوروبية والأمريكية.

ولعل ما يميز حوار الغرب والمسلمين مع الغرب أنه يدور فى إطار حضارة عالمية جديدة ذات أبعاد إنسانية أسهم العرب والمسلمون أنفسهم فى توليدها ورفدها بكثير من المقولات التى أبدعها العرب والمسلمون أو أفادوها من اليونان والفرس والصين والهند فى حضارتها القديمة. وذلك يقتضى أن يعود المتقنون العرب والمسلمون إلى الغوص فى تراثهم وإعادة قراءته بنظرة نقدية واعية تفيد من مناهج العلم الحديث وأدواته ومقولاته وتستوعب تطورات إعادة اكتشاف ثقافتهم العربية والإسلامية التى أسهمت فى توليد ثقافة الغرب الحديثة وإنجازاته العلمية الكبيرة. كما يتطلب العودة إلى تلك المعالم المضيئة فى ثقافتنا العربية والإسلامية لكى ندرك أننا جزء لا يتجزأ من الحضارة الإنسانية الحديثة والمعاصرة التى استفاد منها عدد من شعوب العالم أكثر مما استفاد منها العرب والمسلمون أنفسهم. إن المثقفين

العرب والمسلمين مدعوون للحوار الإيجابي مع الروح العلمية والعقلانية في ثقافتهم، كشرط لا غنى عنه لحوار إيجابي من موقع الندية مع الثقافات الكونية المعاصرة.

2 - استيعاب نقدي عميق لثقافة الآخرين من مصادرها الأصلية. فالحوار مع الآخر يتطلب الإطلاع بصورة عميقة وعقلانية على حاضرة بكافة وجوهه، وعلى تاريخه وراثته، كما يتطلب بلورة أطر مؤسساتية ومرجعية تفي من تجارب لقاءات الحوار التي شارك العرب والمسلمون فيها في السنوات الأخيرة ومما توصلت إليه من نتائج، وما صدر بشأنها من وثائق عن منظمات ومؤسسات ثقافية وسياسية دولية وإقليمية أسهموا في صياغة مقولاتها وتبني مبادئها.

3 - التخلص من الشعور بالدونية ومركب النقص وعقدة الذنب وذهنية الاعتذار والدفاع المستمر عن الذات في أدبيات الحوار. فبالحوار المتوازن والمقرون بالنزاهة الفكرية والأخلاقية تتعزز الأرضية المشتركة وتحدد القيم المشتركة للتفاعل الإيجابي مع الآخر لبناء عولمة أكثر إنسانية تصون الخصوصيات الثقافية وتحترم التنوع الثقافي. وتفترض مبادئ الحوار البحث عن الإنساني المشترك بين المتحاورين وقبول الاختلاف واحترام التعددية، والالتزام بالحرية الإنسانية، والتصدي لفرض قيم أو مبادئ بالقوة.

4 - اعتماد المنهج العلمي في الحوار والالتزام بالموضوعية سبيلاً لمعرفة الآخر معرفة حقيقية بهدف التفاعل الإيجابي معه للمشاركة في بناء مستقبل إنساني أفضل عبر تطوير نظم التعليم والبحث العلمي والأكاديمي وتنشيط التبادل الثقافي والمعرفي بين الشعوب.

مستويات الحوار:

إن من شروط تحقيق حوار فاعل وإيجابي أن يكون شاملاً لمختلف المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية وأن تتسع دائرته لتضم كافة النخب العربية ذات الصلة الوثيقة بموضوع الحوار. وعلى الحوار أن يجري في المجالات والمستويات التالية:

1 - بين القادة السياسيين وصناع القرار السياسي وممثلي الأحزاب والمنظمات السياسية.
2 - بين رجال الدين وعلماء الدين والباحثين في العقائد الدينية والمراكز البحثية الأكاديمية المتخصصة بالشؤون الدينية.

3 - بين النخب الثقافية والمفكرين والأدباء والفنانين وممثلي منظمات المجتمع المدني. ولا بد من الفصل بين الحوار الديني والحوار الثقافي بحيث يستقل الحوار الديني بذاته في نوات خاصة به يتناوله رجال الدين والمتخصصون في الشؤون الدينية، حتى لا يستغل الدين أو يستخدم لأغراض سياسية ويتم الخلط بين السياسي والديني.

وينبغي العمل على تشكيل فرق بحثية متخصصة ذات مرجعيات علمية موثوقة مؤهلة لإجراء حوارات عربية وإسلامية مع دول الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة الأمريكية

والصين واليابان والهند وروسيا وأمريكا اللاتينية والدول الأفريقية، واختيار نخب ثقافية عربية متخصصة تمتلك الخبرة والقدرة على فتح حوار ثقافى تفاعلى قابل للاستمرار مع متقى تلك الشعوب انطلاقاً من معرفة معمقة بتراتها وحاضرها الثقافى، وما شهدته بلدانها من تحولات اقتصادية وسياسية واجتماعية.

كما أن المؤسسات الإعلامية والثقافية مدعوة للاضطلاع بنشر مبادئ الحوار والتعريف بمنهجياته وأهدافه تعريفا بأهميته وغرسا له فى الضمير الوطنى.

أهداف الحوار العربى والإسلامى مع الآخر فى عصر العولمة:

لعل أبرز الأهداف التى ينشدها العرب والمسلمون فى حوارهم مع الآخر فى هذه المرحلة من عصر العولمة، تندرج ضمن المحاور التالية:

1 - إرساء قواعد للسلام والأمن والعدالة فى العالم، والمشاركة فى إعمار الأرض وتحقيق رخاء حقيقى لجميع الشعوب، وتحقيق سياسة تنموية لمواجهة كل أشكال التطرف الدينى والتمييز العرقى والهيمنة السياسية.

2- التصدى للعنصرية بكل أشكالها، والبحث عن قواسم مشتركة مع الآخر ذات أبعاد إنسانية.

3- تحقيق أجواء الانفراج والاستقرار للجنس البشرى، ونبذ الصراعات الدموية وكل أشكال العنف، واحترام الثقافات المحلية وحق أصحابها فى تنميتها وصون خصوصياتها والحفاظ على حقوق موروثها التقليدى.

4- بناء قاعدة صلبة للحوار المتجدد على أساس قبول الآخر المختلف، وتعزيز ثقافة الانفتاح والتسامح والسلام القائم على العدل، وتأسيس هيئات عالمية جديدة لخدمة الإنسانية وتحقيق رفاه الإنسان وتطوير ما هو قائم منها لضمان حل النزاعات المتوارثة بالطرق الدبلوماسية وتأمين حق الشعوب حسب شريعة الأمم المتحدة وقواعد القانون الدولى.

5- العمل على تكريس أشكال جديدة من التعاون المثمر بين قوى النظام العالمى الجديد وفق المبادئ والقيم التى أرساها حوار الحضارات والثقافات، ورفض أساليب اللجوء إلى القوة والهيمنة والاحتلال والتسلط التى تمارسها الدول الكبرى أو القوية عسكرياً ضد الدول الصغيرة والشعوب الضعيفة. والتتديد بالتدخل السياسى والعسكرى غير المشروع كما هو الحال فى العراق، وإدانة الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين وبقية الأراضى العربية المحتلة، والممارسات الإسرائيلية المشينة ضد العرب فى الأراضى المحتلة والتمييز العرقى والدينى ضد السكان العرب، مسلمين ومسيحيين فى أرض فلسطين التاريخية.

6- مشاركة العرب والمسلمين فى إنشاء تحالف دولى جديد لخلق عالم متعدد الأقطاب فى مواجهة العالم الأحادى القطب.

- 7- قيام مؤسسات عربية وإسلامية علمية صرف للحوار البناء تضم نخبا ثقافية عربية وإسلامية متميزة متخصصة فى السياسة والاقتصاد والتاريخ وعلم الاجتماع والعلوم الدينية والفلسفة وغيرها من العلوم الإنسانية، تؤمن بالحوار بين الشعوب والثقافات.
- 8- إطلاق حملة إعلامية دائمة، عبر مختلف وسائل الإعلام، بمشاركة أبرز الإعلاميين والباحثين العرب، للتعرف بأفضل السبل لإجراء حوار متوازن ومثمر مع الآخرين.
- 9- العمل على إبراز الوجه الحقيقى للعرب والمسلمين والصورة المشرفة للحضارة العربية والإسلامية وإدانة المواقف الخاطئة والممارسات المرفوضة التى تتخذها بعض الجماعات المتطرفة باسم الإسلام ويتم تعميم صورها على العرب والمسلمين.

منهجية الحوار وأخلاقياته:

إن من شروط نجاح حوار العرب والمسلمين مع الآخر اختيار موضوعات ذات طابع إنسانى مشترك، وتجنب معالجة القضايا التى تمس مشاعره أو تنتقد ثقافته وقيمه. وإذ يحترم العرب والمسلمون ثقافة الآخر ويقبلون اختلافه ويقدرّون خصوصياته، فإنهم يطالبون الآخر فى حوارهم معهم، باتخاذ موقف مماثل منهم ومن ثقافتهم ومعتقداتهم. ويقتضى ذلك من طرفى الحوار الالتزام بالأخلاقيات التالية:

- 1-احترام التعددية الثقافية لجميع الشعوب انطلاقاً من حقيقة تمايز البشر من حيث اللون والعرق والثقافة، والإقرار بأن التنوع الإنسانى مصدر إثراء للوجود البشرى والثقافة الإنسانية.
- 2-تجنب الأفكار المسبقة، والسعى لمعرفة الآخر كما يقدم نفسه، والبحث عما يجمع ونبذ ما يفرق وقبول خصوصيات الآخر.
- 3-الاحتكام إلى العقلانية مبدأ فى الحوار، وتغليب الأسلوب العلمى على العاطفى والانفعالى، وممارسة النقد الذاتى.
- 4-الإدراك السليم لظروف الحوار وشروطه الموضوعية، والانتهاز إلى ما هو قابل للتنفيذ من التوصيات وتجنب طرح المشاريع غير الواقعية.
- 5-الحرص على البحث عن الوجوه الإيجابية فى الثقافات وإبرازها، وتنمية روح النقد الذاتى لتلافى السلبيات المتوارثة فى النظرة المضخمة للذات، أو ازدياد الآخر، وصياغة صورة الأنا والآخر فى إطار من الفهم المعمق والمتبادل، وتعزيز الرغبة المشتركة فى الدفاع عن القيم الإنسانية التى تضمن التفاعل الإيجابى الخلاف بين الشعوب والثقافات.
- 6-السعى لأن يكون الحوار رصينا وبعيداً عن كل أشكال التشنج والتعصب، واعتماد النزاهة الفكرية، وعدم التحيز للذات على حساب الآخر، ونبذ الانتقائية فى تطبيق القواعد

والمواثيق الدولية، واحترام حقوق الإنسان، ورفض سياسة الكيل بمكيالين، أو التحدث بأسلوبين مختلفين في الحوار الداخلى وفي الحوار مع الآخر، وعدم توظيف الحوار لخدمة أغراض آنية وسياسات إقليمية أو دولية ضيقة وتوازنات دولية مرحلية أو هادفة إلى الهيمنة والرغبة فى التسلط على الشعوب المستضعفة.

7- إعادة النظر فى ما هو سائد من مفاهيم التقدم والتخلف والرفض القاطع لربطها بدين معين أو ثقافة محددة، وتجاوز الصور النمطية، واعتماد قراءة علمية ومنهجية موثقة للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية لدى الأنا والآخر دون ربطها بالموروث الدينى.

8- رفض وجود معايير ثابتة لمفاهيم التقدم والتخلف الثقافى والحضارى يفرضها طرف على الآخر، والإقرار بأن ما حققه الغرب فى العصر الحديث ليس المثال الواجب احتذائه لتحقيق التقدم الحضارى فى هذا العصر، وهو ما أثبتته تجارب التحديث والنهضة فى دول آسيوية عديدة يجدر بنا الاستفادة منها.

توصيات ختامية

إن الثقافات العربية والإسلامية ذات قابلية تاريخية للحوار مع الثقافات الأخرى، إذ أثبتت انفتاحها عليها والتفاعل الإيجابى معها عبر حقب تاريخية مختلفة، وبخاصة فى أوج الازدهار الذى شهدته الحضارة العربية الإسلامية. ويظهر العرب والمسلمون اليوم استعداداً لتعزيز الحوار الإيجابى البناء مع الشعوب الأخرى وثقافتها. ولكى يصل العرب والمسلمون بالحوار مع الآخر إلى نتائج إيجابية وفاعلة فى عصر العولمة، ينبغى أن يستفاد مما يصدر عن مؤتمرات الحوار السابقة من وثائق، حتى لا يكون كل مؤتمر كأنه البداية.

كما أن ظروف المرحلة الراهنة وتعقيداتها المتزايدة فى عصر العولمة تتطلب بلورة منهجية جديدة للحوار مع الآخر انطلاقاً من ثقافة عربية تفيده من الثقافات الإنسانية الحديثة والمعاصرة بمزاوجتها بالفكر المستنير فى تراثنا العربى الإسلامى وبالإنجازات التى حققتها الحضارة العربية والإسلامية فى مرحلة ازدهارها، ووعى أسباب تراجعها وتحديد العوامل التى أدت إلى الانحطاط الحضارى ليصار إلى تحقيق النهضة الحضارية المنشودة.

والثقافة العصرية متعددة الوجوه ومتنوعة ومندخلة، لا يجوز الفصل القاطع فيها بين حقل معرفى آخر. من هنا لابد أن يشمل الحوار الثقافى مختلف الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وأن تشارك فيه القيادات السياسية والنخب الثقافية والاقتصادية والإعلامية إلى جانب ممثلى هيئات المجتمع المدنى والأحزاب والنقابات والمنظمات النسائية والشبابية والمراكز البحثية وغيرها. بذلك يتسع نطاق الحوار وتتعدد مستوياته وتغتنى موضوعاته لتشمل القضايا الملحة التى تطول حاضر العرب والمسلمين ومستقبلهم، مثل حقوق الإنسان العربى والمسلم، وحياته الأساسية، وركائز بناء الديمقراطية السليمة فى العالمين العربى

والإسلامى، والنهوض بالقطاع الخاص، والاستفادة القصوى من الثروات العربية لتعزيز دور العرب والمسلمين على المستويين الإقليمى والدولى، وتشجيع الحوار الإيجابى بين المكونات المجتمعية داخل الوطن العربى، وتكثيف الحوار الإسلامى المسيحى إلى جانب الحث على الحوار فيما بين المذاهب الإسلامية، وفيما بين الطوائف المسيحية.

إن لدى العرب نخبا ثقافية عديدة تتمتع بكفاءات متميزة فى الحوار، وبجدارة علمية عالية تؤهلها لمعرفة ثقافة الآخر الذى تحاور من مصادرها وبلغاتها الأصلية. وهى قادرة على إجراء حوار ثقافى رفيع المستوى يعالج القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى تهم العرب والمسلمين والشعوب الأخرى فى عصر العولمة. وبمقدور هذه النخب العربية والإسلامية أن تسهم فى توليد عولمة أكثر إنسانية مما يشهده عالمنا اليوم من عولمة. كما أن بإمكانها إطلاق مبادرات سياسية واقتصادية وثقافية تسهم فى تعميق الحوار بين الشعوب على أساس الحفاظ على المصالح المشتركة وصون السلام العالمى، ورفض كل أشكال الهيمنة السياسية والثقافية والسيطرة العسكرية أو الاقتصادية. وحتى يحقق الحوار أهدافه ويؤتى ثماره نقتراح التوصيات التالية:

- 1- صياغة مبادرات عربية وإسلامية ذات مضمون إنسانى للحد من مخاطر عصر العولمة والتفرد الأمريكى بالقرارات الدولية.
- 2- وضع معايير عربية وإسلامية أساسية للتمييز بين المقاومة والإرهاب، وضمان الحد من التدخل الخارجى على مختلف الصعد.
- 3- مشاركة العرب والمسلمين مشاركة فاعلة فى إصلاح الأمم المتحدة ومؤسساتها لتعزيز دورها فى الحفاظ على السلم العالمى القائم على العدل، وصون استقلال الدول الصغيرة، ومنع التدخل العسكرى للدول الكبرى وهيمنتها.
- 4- الإسهام فى إصدار تشريعات دولية تمنع الأعمال العنصرية ضد الأقليات العرقية والدينية فى كل دول العالم والمصادقة عليها.
- 5- وضع ضوابط عقلانية لمبدأ حرية التجارة الدولية الذى ألحق أضرارا فادحة بالدول الفقيرة والنامية بشكل خاص.
- 6- المشاركة الفاعلة فى الحركة الثقافية العالمية المناهضة للعولمة الراهنة التى يقودها القطب الأمريكى المتفرد بقيادة عصر العولمة.
- 7- تشجيع نزوع العرب إلى إقامة عولمة أكثر إنسانية ودورهم فى تحقيقها، والتعاون الوثيق مع المنقذين الليبراليين والديمقراطيين فى جميع دول العالم من أجل وقف النزعة المتزايدة نحو سباق التسلح، والتهديد بتفجير نزاعات جديدة فى العالم، وبشكل خاص فى منطقة الشرق الأوسط.

8-توليد أجيال متعاقبة مع القوى الشبابية المؤمنة بالحوار الإيجابي بين الشعوب، وإطلاق حملة واسعة لنشر الكتب الموضوعية والمترجمة التي تساعد على تعميق الوعي لدى الشباب العربى والمسلم بأهمية الحوار مع الشعوب الأخرى، وضرورة مشاركة الشباب العربى والمسلم فى بناء عالم آمن، ومنزوع السلاح، ومفتوح على كل أشكال التفاعل البناء بين شباب العالم.

9-الإشادة بالمبادرة المشتركة بين المنظمة العربية للتربية والثقافية والعلوم والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافية بالدعوة إلى هذا الاجتماع، ومطالبتها بمواصلة هذه المبادرة وإجراء لقاءات للمتقنين العرب فيما بينهم بصورة منتظمة للوصول إلى رؤية ثقافية عربية وإسلامية مشتركة تكون أساساً صلباً للحوار مع متقنى الدول الأخرى فى المرحلة الراهنة، وإدراج موضوع الحوار مع الآخر ضمن برامجها الثابتة، ودعوتها إلى تبنى مشروع إعداد خرائط معرفية عن الآخر بالاستناد إلى بحوث علمية وميدانية معمقة.

ملحوظة: (ما سبق هو نص وثيقة أبو ظبى عن رؤية عربية إسلامية لحوار الثقافات)